الأدب الشيعي في الأندلس
دراسة في تجربة ابن الأبار [٦٨٥هـ]

د. احمد بادكوبه الهزاوة (*)

إطلالة على تاريخ أدب التشيع في الأندلس

سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢هـ بيد العباسيين؛ فحكموا البلدان الشرقية للإسلام، لكن مع دخول عبد الرحمن الداخل ـ حفيد هشام بن عبد الملك ـ إلى الأندلس، استطاع الأمويّون إدارة الأندلس ثلاثة قرون، وصاروا بذلك من أشدّ المنافسين للخلافة العبّاسية.

ولشدّة عداء الأمويين المستحكم والطويل للشيعة؛ فقد سدّوا كلّ المنافذ للحيلولة دون دخول الفكر الشيعي إلى تلك البلاد، وقد وصل الأمر بالأمويين الذين كانوا يُراقبون الأوضاع الاجتماعيّة للشيعة آنذاك، أنّهم كانوا إذا ظفروا بشيعيٍّ قتلوه.

وقد عمل الأمويّون في الأندلس على تثبيت عقائد أهل السنّة والترويج للمذهب المالكي مرفقاً ذلك بمحاربة الفكر الشيعي.

ورغم ذلك، فقد واجه الأمويّون الكثير من الحركات والثورات المختلفة ضدّهم، وكان يقود بعض تلك الثورات أحفاد الصحابة من الشيعة مثل عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر، ولا يخفى أنّ هذه الثورات كانت صِبْغَتُها شيعيّةً اعتقادية، لكنّ جذرها يرجع إما إلى طلب الوصول للسلطة، أو أنّها كانت بسبب النزاعات

(*) الأستاذ المساعد في قسم تاريخ الثقافة والتمدّن الإسلامي، في جامعة طهران.

القبَليّة التي كانت بين قبيلة بني كلب وبني قيس[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ادّعاء الانتساب لأهل بيت النبوّة عليهم السلام كان يقوّي جانب الثورة ضدّ الأمويين في الأندلس، وهو أمر طبيعي؛ فهناك ـ مثلاً ـ رجلٌ من البربر اسمه (شَنقا) خرج على الأمويين مدّعياً الانتساب إلى فاطمة الزهراء عليها السلام[٢]، وكان يرمي من وراء هذا الادّعاء جلب أكبر عدد من البربر في الأندلس إلى جانبه؛ وقد استمرّت ثورته منذ عام ١٥٢ وحتى عام ١٦٠هـ[٣]. وثمّة أنموذج آخر نهض ضدّ الأمويين في مدينة اشبونة عام ٣٣٢هـ كان قد ادّعى أن نسَبَه ينتهي إلى عبد المطّلب[٤].

لم تدُم السياسة الأمويّة ضد التشيّع طويلاً؛ وذلك لوجود ثغرات في الصفّ الأموي، مثل قيام دولة الأدارسة في المغرب، والفاطميين في تونس ومصر، وكذلك ضعف وعجز الحكّام الأمويين أنفسهم، ذلك كلّه أدّى إلى نفوذ الأفكار الشيعيّة إلى تلك الديار؛ فسقوط الأمويين وتشكيل حكومة ملوك الطوائف التي كان مِن جُملتها الحمّوديون، وكانوا أصحاب ميول شيعيّة، أدّى إلى توفير المناخ لنموّ العقائد الشيعية والأدب الشيعي في الأندلس، ومِن المحتمل أن يكون تشيّع الحمّوديين الذي تأثّر بعقائد الشيعة الأدارسة تشيّعاً زيديّاً.

قامت سياسة الحمّوديين على التسامح؛ فلم يجبروا أحداً من رعيّتهم على اعتناق مذهب أهل البيت عليهم السلام، وقد استمرّ حكمهم فترةً من الزمن مهيمنين فيها على قسمٍ من بلاد الأندلس؛ ومن الطبيعي أن تتأثر طبقات الرعيّة بهذه الحكومة، فقد برزت مجموعة من الأدباء الشعراء الشيعة خلال تلك الفترة من حكمهم.

وقد أنشد الشعراء قصائد كثيرة، كان منهم الشاعر ابن درّاج، الذي أنشد قصائد غرّاء للأمراء الحمّوديين، وكذلك لأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله؛ ويعتبر أوّل شاعر أندلسي نظّم شعراً حزيناً في مصائب أهل البيت عليهم السلام، يقول ابن بسّام حول قصيدة ابن درّاج الهاشميّة: «إذا سمع دعبل الخزاعي والكميت بن زيد قصيدتَه هذه فلا يمكنهما أن ينبسا ببنت شفة»[٥].

طبعاً، لا يمكن الحكم على هؤلاء الشعراء بالتشيّع؛ وذلك لأن الأوضاع المضطربة في ذلك الزمان ووجود دولة ذات ميول شيعيّة أمثال الحمّوديين، والطمع في

عطايا الملوك والحكّام؛ ذلك كلّه أدّى ببعض الشعراء إلى كتابة هكذا أشعار في مناقب ورثاء أهل البيت عليهم السلام.

وبهذه المناسبة، فقد شكّك بعض الباحثين المعاصرين في تشيّع هؤلاء الشعراء، كما شكّكوا باعتقادهم الإثني عشري [٦]، وبمرور الزمان صار الأدب الشيعي أكثر هيجاناً، وبالخصوص في عصر المرابطين والموحّدين في الأندلس.

ابن أبي خصال (٤٦٥ ـ ٥٤٠هـ) كاتبٌ أميرٌ سنّيٌ من المرابطين، ويوسف بن تاشفين، أنشد قصائد في مناقب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وعترته ومصائب أهل البيت عليهم السلام، وكذلك صفوان بن إدريس (٥٦١ ـ ٥٩٥هـ) شاعرٌ من شرق الأندلس، كان من مُريدي ابن أبي الخصال؛ فقد أعرض فجأةً عن مدح الأمراء وانشغل بمدح النبي وآله عليهم السلام، وكتب أشعاراً حزينة مؤثّرة في رثاء الحسين بن علي عليهما السلام؛ أدّت إلى تهييج الناس وبعث الحماس فيهم، وكانت مراثيه تُقرأ في مجالس العزاء في مرسيليا والمناطق الشرقية من الأندلس، كما كانت تثير الحماسة والهمّة في نفوس الناس [٧].

ابن الأبار والأدب الشيعي

في هذه الأجواء، وُلد في عام ٥٩٥هـ/١١٩٩م، أبو عبد الله محمّد بن عبد الله القضاعي، المعروف بابن الأبّار، قرب بلدة بَلَنسيه [٨]، وكان ذائع الصيت في الأندلس، وبعد أن تعلّم علوم عصره [٩]، تقلّد منصب قاضي مدينة دانية، ودخل مُعترك السياسة وهو في الثلاثين من عمره؛ حيث أدار أموراً متنوّعة وكثيرة في البلاط، من جُملتها الكتابة [١٠]، أي كاتب الديوان.

ولسوء حظّه، عاش أقسى أيام حياته عندما نُفي إلى شمال أفريقيا في بلدة البجاية [١١]، وهناك التحق ببلاط آل حفص؛ لكن وشايةً سعى بها بعض السلطويين في البلاط أدّت إلى قتله بشكل فجيع عام ٦٨٥هـ؛ حيث أحرقوا كتبه على جثّته [١٢]، وصار يُلقّب فيما بعد بالشهيد المظلوم [١٣].

على كلّ حال، تعتبر آثار ابن الأبّار وكتاباته من المصادر المهمّة في معرفة تاريخ وثقافة وأدب الأندلس بلا تردّد [١٤]؛ فقد كان يشاهد العزاء الحسيني في مسقط

رأسه شرق الأندلس، وقد سمع من أساتذته مراثي خامس أهل العباء الإمام الحسين عليه السلام.

كان أحد أساتذته المسمّى أبو الربيع سليمان الكلاعي، على علاقة خاصّة وحميمة بالشاعر صفوان بن إدريس، الذي تحدّثنا عنه قبل قليل، وقد تعرّف ابن الأبّار على هذا النوع من الأدب، المعروف في الأدب العربي بأدب البكاء، على يد هذا الشاعر، ونال إجازة الرواية لبعض كتب المناقب من أساتذته، من جملتهم كتاب مناقب السبطين تأليف أستاذه أبي عبد الله محمد بن التجيني (٥٤٠ ـ ٦١٠هـ) (١٥)؛ إذاً، فلا غرابة في اهتمام ابن الأبّار بمصائب آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، وبالخصوص فاجعة كربلاء التي أولاها عنايةً خاصّة؛ فقد كان ذلك ظاهراً من خلال كتاباته وآثاره.

ومن بين آثاره كتابَين، يُقدّمان صورةً واضحة عن ميوله الشيعيّة؛ وهما دُرر السمط في خبر السبط، والآخر معدن اللّجين في مراثي الحسين، وهو كتاب لم يصل ـ مع الأسف ـ إلينا، لكنّ الشئ الوحيد الذي نعرفه عنه هو ما قاله ابن الأبّار نفسه في التكملة عنه(١٦) حيث قال: «من تأليفي».

وقد أطرى الغبريني كثيراً على هذا الكتاب، وقال: إن هذا الكتاب كافٍ لإثبات فضل ابن الأبّار في الأدب (١٧)، ويمكن استنتاج أنّ هذا الكتاب كان نثراً لا نظماً من كلام ابن الأبّار نفسه عنه حيث قال في (معدن اللجين): إنه من تأليفي.

ابن الأبار والتشيّع، هل كان ابن الأبار شيعياً؟

هل يمكن الحكم بتشيّع ابن الأبار؛ استناداً إلى ما مرّ؟

للإجابة على هذا السؤال، نرى من المناسب أن نطرح أدلّة المخالفين والموافقين في هذا الموضوع، ثم نحكم ـ بعد ذلك ـ على تشيّعه أو عدمه، عبر دراسة أدلّة الطرفين في الموضوع؛ بغية الوصول إلى نتيجة نهائية.

من القائلين بتشيّع ابن الأبّار الذهبي (٧٤٨هـ)، وكأنّه أوّل من قال بذلك، وقد استند الذهبي في قوله هذا إلى استعماله لفظ (الوصي) في حقّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وإبراز العداوة لمعاوية وبني أميّة في كتابه دُرر السمط؛ ممّا يؤكّد

تشيّعه[١٨].

وقد أشار المقري أيضاً في كتابه نفح الطيب[١٩] إلى تشيّع ابن الأبّار، وأثبته من خلال المدح والثناء على أسلوبه الأدبي في كتابه دُرر السمط، فقد أورد صاحب كتاب نفح الطيب نماذج تدلّ على تشيّع الرجل، من هنا قال كتّاب الشيعة؛ ومن ضمنهم السيد محسن الأمين ـ بعد نقله كلام المُقرّي ـ : يمكن معرفة تشيّع ابن الأبار من خلال عباراته في كتابه دُرر السمط الواضحة، وأن ما قيل في عداء ابن الأبار للشيعة من خلال جوابه لرسالة ابن المطرّف في أنه تكلّم ضدّ الشيعة وأظهر عداءه للشيعة، فغير واضح ومبهم ولا يمكن استنتاجه من جواب رسالته لابن المطرّف[٢٠].

أمّا الآغا بزرك الطهراني، فذهب إلى تشيّع الرجل؛ مستفيداً ذلك من الشواهد المذكورة؛ وقد ذكر بعض آثاره في كتابه: (الذريعة)[٢١].

أما المخالفون لتشيّع ابن الأبّار فيقولون: رغم أنّ كتابه دُرر السمط يعظّم جلالة أهل البيت عليهم السلام ويذمّ بني أميّة؛ لكنّ هذا لوحده لا يُثبت تشيّعه؛ لأنّ تشيّع ابن الأبّار يعني الحبّ والولاء لأهل البيت لا الاعتقاد بالأسس الفكريّة للشيعة الإمامية؛ ولهذا نلاحظ أنّ ابن الأبّار رغم أنه يقول بأن عليّاً عليه السلام كان وصي رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّه سيد الأوصياء، لكنّه لا يعتقد بما تعتقد به الشيعة من وصايته على وزان وصاية موسى لهارون، بل يقول: إنّه آخر خليفةٍ للمسلمين، وأن معاوية أول ملكٍ بعد ظهور الإسلام، كما يرى أنّهما معاً ـ عليّ ومعاوية ـ في الجنّة[٢٢].

ويتحدّث ابن الأبار في أحد قصائده الشعرية عن أهل السنّة بعيداً عن الرفض ـ وهو التشيّع الإثنا عشري ـ والنّصب والبغض[٢٣]. ويكتب أيضاً في رسالته إلى أبي المطرّف: «كلا، بل دانت (الأندلس) للسنّة، وكانت من البدع في أحصن جُنّة..» كنايةً عن بدع الشيعة الإثني عشريّة والفِرَق الأخرى[٢٤].

الشواهد على عدم التشيع العقائدي لابن الأبار

ويمكن جعل الشواهد التالية مؤيّدةً لرأي المخالفين لتشيّع ابن الأبار، وهي:

أ ـ لو ألقينا نظرةً فاحصة على الأوضاع أواخر سلطة الموحّدين في الأندلس،

لظهرت لنا المصائب والويلات التي جَرَت على المسلمين جرّاء سلطة المسيحيين بعد سقوط مُدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى؛ ونتيجةً لتلك الأوضاع المؤلمة راجَت وازدهرت صناعة أدب الرثاء في الأندلس.

وقد استَغَلّ الشعراء هذه الفرصة وصاروا يَرْثون أهل البيت عليهم السلام ويذكّرون بجنايات الأمويين، لا سيما الواقعة الأليمة المُقرحة للقلوب، وهي واقعة كربلاء وشهادة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وكان الناس في الأندلس يعتبرون ذلك سلوى لهم ولمأساتهم، وكان النداء يصل حتى إلى غيرهم من المسلمين في البلدان الأخرى؛ وعبر ذلك كان الشعراء يحثّون المسلمين على مقاومة المسيحيين الغزاة؛ فلم يكن الرثاء الذي قام به الشعراء سوى رثاءً للأوضاع المزرية التي مرّ بها مسلمو الأندلس، وتسليةً لخواطرهم، وكان ابن الأبار واحداً من أولئك الشعراء الذين كتبوا في هذا المجال، فلم يكن غريباً ولا بعيداً عن تلك الأجواء التي تأثر بها، وقدّم في ظلّها كتاباً أسماه دُرر السمط، والذي صار مورد تأييد وتمجيد الكثيرين، أمثال الذهبي، ذلك العالم المتعصّب ضدّ الشيعة.

ب ـ عدم التمكّن من الوصول إلى آثار ابن الأبّار أدّى إلى الحكم على عقائده عبر ما تنقله المصادر الأخرى، لا من مصنّفاته نفسها مباشرةً؛ ولم تكن تلك النقولات دقيقةً بما فيه الكفاية؛ فالسيد محسن الأمين والآغا بزرك الطهراني اعتمدا ـ فقط ـ على نقل قول صاحب نفح الطيب (المقري)، والحال أنّ كتاب دُرر السمط مطبوع، ويمكن البحث فيه كلّه؛ للخروج بنتيجة، تؤكّد أنّ تشيّع ابن الأبار لم يكن سوى إظهار المحبّة لآل البيت عليهم السلام، لا تشيّعاً عقائدياً.

ومثلما كان ابن الأبّار يبجّل أهل البيت عليهم السلام، كان ـ أيضاً ـ يكنّ الاحترام للخليفة الأول، وكان يعظّم الخليفة الثاني بالخصوص، ويعتقد أنّ باب الفتنة قد فُتح بعد وفاة عمر، ولو كان حيّاً لما وقعت تلك المصائب والفتن الكبرى، سيّما فتنة يوم الدار ـ أي يوم مقتل عثمان ـ وفاجعة كربلاء[٢٥].

ويذكر في مكان آخر من كتابه (درر السمط) عبيد الله الشيعي، ويرفع من مكانته، وذلك عندما كان يُقارن بينه وبين عبيد الله بن زياد[٢٦]، من هنا يمكن

التنبؤ بأنّ الميول الشيعيّة في الأندلس جاءت نتيجةً لنفوذ الفاطميين في مصر آنذاك.

ج ـ استعمال كلمة (الشيعي) في آثار الذهبي لا تعني الشيعة الإثنا عشرية؛ فعندما يطلق هذه الكلمة يعني بها القائل بأفضلية علي عليه السلام على الخلفاء الثلاثة، حتى لو كان هذا المتحدّث سنّي المذهب، مثل: محمد بن جرير الطبري، المؤرّخ والمفسّر المشهور، والحاكم النيسابوري صاحب كتاب مستدرك الصحيحين؛ فمن وجهة نظر الذهبي كانت ميولهما شيعيّة(٢٧)، كما يطلق الذهبي كلمة الرافضي على غيرهم من رجال الإمامية، أمثال دعبل الخزاعي، والشريف الرضي، والشيخ المفيد(٢٨).

إطلالة إجمالية على كتاب درر السمط في خبر السبط لابن الأبار

من خلال تصفّح كتاب ابن الأبّار (دُرر السمط في خبر السبط)، وبإلقاء نظرة عليه يمكننا أن نستبين اعتقاده ورأيه بالشخصيات والحوادث المهمة في تاريخ صدر الإسلام؛ فإذا ما قارنّا هذه الآراء والمعتقدات بآراء الشيعة الإثني عشرية ومعتقداتها أمكننا البتّ بعدم تشيّعه الإمامي.

ففي هذا الأثر (درر السمط)، استطاع ابن الأبّار، واعتماداً على قدرته الأدبية وقلمه المقتدر، أن يصوّر أحاسيسه الجيّاشة تجاه أهل البيت عليهم السلام، مستفيداً من أسلوب السجع كثيراً، فغدا ما كتبه محلّ ترحيب عموم الناس(٢٩).

يحتوي كتاب دُرر السمط على مقدمة وأربعين فصلاً قصيراً، فلم يكتفِ المؤلّف فيه بذكر شهادة الإمام الحسين عليه السلام، بل تحدّث عن حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، كما تحدّث عن أهل بيته وما حلّ بهم من مصائب، وابتدأ كتابه بذكر قصّة بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مروراً بالحوادث التي وقعت في العصر الأموي، ثمّ أشار إلى سيرة السيدة خديجة الكبرى وفاطمة الزهراء عليهما السلام، معرّجاً على مناقب علي عليه السلام وحروبه، وتطرّق بعدها إلى زوايا من حياة الإمام الحسن والحسين عليهما السلام، وكيفيّة شهادتهما، وقد صوّر ـ بعد ذلك ـ الواقعة الأليمة لفاجعة كربلاء، كما تحدّث عن بداية ظلم بني أميّة وكيفية الانتقام منهم على يد أول خليفة عباسي، وهو السفّاح.

ويُعْزي الكاتب هذا الاختلاف إلى الفِرقة بين المسلمين بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ، فقد كان يذكر الخليفتين بخير، سيما الخليفة الثاني الذي كان يقول فيه: لو كان عمر حياً لم تقع مصائبٌ مثل مصيبة يوم الدار ـ قتل عثمان ـ ومصيبة فاجعة كربلاء[٣٠]، وقد وصفَ فضائل أهل البيت عليهم السلام بأنها كالشمس الساطعة، رغم ما عانوه من الظلم المُستَعر من جانب بني أميّة، وأنّهم كالنجوم التي يهتدي بها الناس[٣١]، ثم تهجّم على بني أمية ووصَفهم بعبارات تحقيريّة، كقوله: (الطلقاء)، وأنّهم تشبّثوا بالمناصب التي اغتصبوها بغير حقّ[٣٢].

وقد ذكر في جانبٍ آخر من كتابه ولادة الزهراء عليها السلام ومقامها السامق بين نساء الدنيا، واعتبرها واحدةً من أفضل نساء الدنيا الأربع، ونعتها بنعوت سامية تليق بمقامها كأمّ أبيها وزوج وصي رسول الله ﷺ[٣٣].

ويذكر ابن الأبار بعض فضائل علي عليه السلام مثل فضيلة أوّل مؤمن من الذكور، والتي لم يستطع غيره من الخلفاء الوصول إليها، وقد فهم من حديث المنزلة واستنبط شيئاً يخالف تماماً ما استنبطه الشيعة الإمامية من الحديث نفسه، وقد ذكر ذلك في كتابه، فقد صرّح ابن الأبّار قائلاً: لولا هذه العبارة (لا نبيّ بعدي) في حديث المنزلة لصار اتّباع عليّ واجباً بعد رحلة الرسول ﷺ، فالاستثناء الذي جاء في ذيل الحديث (إلا أنه لا نبي بعدي..) منع من وجوب اتّباع علي عليه السلام[٣٤]، فيما الشيعة رغم اعترافهم بخاتميّة الرسالة، لم يمنعهم ذلك من اتّباع علي بن أبي طالب عليه السلام.

ويذكر الكاتب أبا طالب استطراداً، ويقول ما قالته السنّة فيه من أنّه رحَلَ عن الدنيا كافراً[٣٥]، أما الشيعة فيذهبون إلى أنه مات موحّداً مؤمناً، كما يعتبر الإمام عليّاً عليه السلام آخر خليفة، ومعاوية أوّل مَلِك في الإسلام، وكأنّه يقول: إنّ الإمام الحسن عليه السلام كان هو الخليفة الخامس، والكاتب يرى ـ رغم الفارق الكبير جداً بين علي عليه السلام ومعاوية ـ أنّ مأواهما جنّة الفردوس.

ويقوم ابن الأبّار بمقارنة جميلة بين شخصية الإمام الحسين عليه السلام وشخصيّة يزيد بن معاوية؛ وذلك لكي يمهّد للإجابة عن السؤال التالي: لماذا قام الإمام الحسين عليه السلام بالثورة؟ فيشرع بالحديث عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام ورسائل أهل

الكوفة له، وحركته صوب الكوفة؛ وينقل أيضاً قصّة مسلم وهاني بن عروة في الكوفة، وكيفيّة دخول عبيد الله بن زياد متخفّياً إليها(٣٦). ثم يُديم الحديث بعد ذلك عن حركة الحرّ بن يزيد الرياحي نحو الحسين عليه السلام، ويتحدّث أيضاً عن مقتل مسلم في الكوفة.

ينقل ذلك ابن الأبّار فيقول: عندما وصل خبر مقتل مسلم بن عقيل إلى الإمام الحسين عليه السلام صمّم الرجوع، لكنّ أهل بيت مسلم تظلّموا له وأقنعوه بوجوب الأخذ بثأر مسلم وإكمال المسير نحو الكوفة، وكم تمنّى ابن الأبّار أن يكون الحسين عليه السلام رجع إلى وطنه ولم يواصل المسير نحو الكوفة؛ كي لا تقع هذه الواقعة الدمويّة الفجيعة في كربلاء (٣٧).

بعد أن حوصر الإمام الحسين عليه السلام مع أصحابه في كربلاء من خلال جيش عبيد الله بن زياد، خطب عليه السلام والأصحاب خُطباً رنّانة ضَمّنَها ابن الأبّار في حديثه عن الإمام عليه السلام، أمثال: «لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل» و«إني لا أرى الموت إلا سعادة» (٣٨).

تعابير ابن الأبّار وقلمه السحري في وصف واقعة عاشوراء أدّى إلى أن يتألّم مُخاطَبوه إلى حدّ العويل والأنين على تلك المصيبة، فأخذ يتكلّم أيضاً عن هتك حرمات أولئك الأطياب وذبحهم وهتك نسائهم وأطفالهم، والغارة على مخيّم الإمام الحسين عليه السلام؛ وكان ابن الأبّار يشاطر أبا مخنف في التعبير عن واقعة كربلاء ومقتل الإمام الحسين عليه السلام القول: «إن أمّةً تقتل الإمام الحسين عليه السلام هل تدخل الجنّة بشفاعة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله؟!» (٣٩).

والجميل في كلام ابن الأبار أنّه في أوج رثاء الإمام الحسين عليه السلام وفاجعة كربلاء كان يذكر عبيد الله بن زياد بالسوء والعار، فقد ذكَرَ بهذه المناسبة وبكمال الدقّة والحصافة الاسم المواطئ لاسم عبيد الله بن زياد، وهو عبيد الله الشيعي، أوّل خليفة من خلفاء الفاطميين في مصر، وحلّل شخصيّته وذكره بخير، فقال: إنّ الخلفاء من بعده ـ أولاد عبيد الله ـ قاموا بتمثيل واقعة كربلاء وتجسيدها على أرض مصر (٤٠).

ومن خلال تجليله للفاطميين، وهم من الشيعة الإسماعيليّة، يُحتمل أنّه قد مال للشيعة من خلال ذلك التأثّر بهم، فبعد أن ذكر ابن الأبّار جرائم يزيد الأخرى مثل قتل أهل المدينة في واقعة الحرّة، ذكر عبد الملك بن مروان الذي وصَفَه بأنه أعقل من يزيد، وأكثر تدبيراً، لكنّه ـ أي ابن الأبّار ـ يصرّح بأن أبناء عبد الملك لم يدّخروا جهداً في أذيّة أهل البيت عليهم السلام؛ فلم يكن جزاؤهم إلا انتقام بني العباس منهم أيّما انتقام(٤١)، وأخيراً، قام بمدح عمر بن عبد العزيز لما فعله مع أهل البيت عليهم السلام، والإصلاحات التي قام بها في النظام الحكومي للأمويين(٤٢).

أمّا الفصل الأخير من كتابه، فقام فيه بنقل مجموعة من الأدعية والابتهالات، طالباً العفو من ربّ العالمين على التقصيرات التي ربّما صدرَت عنه، متمنيّاً شفاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كما تحدّث عن الأوضاع المترديّة والمضطربة في ذلك الوقت(٤٣)، حيث صار المسيحيون في شمال الأندلس أقوياء، وجهّزوا جيشاً لذلك، وأخذوا باحتلال المدن الواقعة هناك الواحدة تلو الأخرى، مشرّدين المسلمين من بلادهم؛ فالتجؤوا إلى المدن الأخرى القريبة، وعانوا ما عانوه من آلام الغربة القاسية، كما اضطرّ المسلمون الذين بقوا في مدنهم المحتلّة ـ من جانب آخر ـ للخضوع لمحاكم التفتيش العقائدية.

النتيجة

للفكر الشيعي أو فكرة التشيّع في بلاد الأندلس مقارناً بالبلدان الشرقيّة الأخرى مثل العراق وإيران، شكلان مختلفان؛ فالتشيّع في الأندلس قائم على المحبّة الصّرفة لأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا أكثر، فيما الشيعة الإماميّة في العراق وإيران لديهم اعتقادهم بخلافة الأئمة عليهم السلام بلا فصل بينهم وبين الرسول، كما يعتقدون بأنّهم الزعماء السياسيين والمعنويين لهم.

ومن خلال دراسة حال وأفكار ابن الأبار، والتي تُعتبر أنموذجاً للشعراء والكتّاب المحبّين لأهل البيت عليهم السلام في الأندلس، لا يمكننا الحكم عليه بالإمامية، لكن يمكننا الاعتراف بميوله الشيعية؛ أمّا ما ظهر من الكتب التي تحكي عن ظلم

بني أميّة لأهل البيت عليهم السلام وتحمّس الناس وتبيين ذلك لهم، أمثال كتاب دُرر السمط في خبر السبط لابن الأبّار، وكذا إقامة العزاء والمراثي الحسينيّة بالخصوص في شرق الأندلس بعد أفول حكومة الأمويين، ذلك كلّه دليلٌ على وجود موجةٍ جديدة في القَرنين: الخامس والسادس الهجريين، كان فيها الشعراء والكتّاب ببياناتهم الحماسيّة والمُهيّجة لمصائب أهل البيت عليهم السلام وظلم بني أميّة، قد حاولوا ـ من جانب ـ أن يثيروا الحماسة وروح الجهاد ضدّ المسيحيين الذين هاجموا المدن التي يقطنها المُسلمون، عسى أن يستطيعوا من خلال هذه الوسيلة إيقاف الزحف المسيحي الذي طال مدن الأندلس، وأسقطها الواحدة تلو الأخرى، كما كانت ـ ومن جانب آخر ـ مصائب أهل البيت عليهم السلام تسليةً للخواطر والقلوب المفجوعة لأهل الأندلس، الذين خاضوا الحرب مع المسيحيين الذين أسقطوا مدنهم واحتلّوها.

وبناءً على ذلك كلّه، فإنّ الميول الشيعيّة لأمثال ابن الأبّار، وإقامة المراسم الشيعيّة مثل المجالس الحسينيّة في الأندلس لَدليلٌ على تمايل المسلمين من أهل السنّة نحو محبّة أهل البيت عليهم السلام وبُغض الأمويين.. الأمويون الذين حكموا الأندلس لقرون عديدة، وكانوا يكنّون العداء لاسم أهل البيت وأفكارهم ويحاربونها، لكن مع كلّ ذلك، وبعد مرور فترة من الزمن، تعاظم الحبّ والولاء لآل البيت عليهم السلام في الأندلس.

* * *

الهوامش

1 ــ مقدمة دُرر السمط: ٥.

2 ــ محمد إبراهيم آيتي، الأندلس: ٤٦ ـ ٤٧، طهران، ١٩٨٤م.

3 ــ ابن العذارى المراكشي، البيان في أخبار الأندلس والمغرب ٢: ٥٤ـ ٥٥، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧م.

4 ــ المصدر نفسه ٢: ٢١١.

5 ــ علي بن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١: ٧٠ـ ٧٤؛ ابن درّاج، الديوان؛ القصيدة: ٣١.

6 ــ انظر: شوقي الضيف، تاريخ الأدب العربي: ٥٤ ـ ٥٥؛ وسعد إسماعيل شبلي، البيئة الأندلسيّة وأثرها في الشعر: ٢٣٧.

7 ــ انظر: الهراس والعراب: ط ، ي؛ وحول كيفية إقامة مراسم عزاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء شرق الأندلس، تقريرات لسان الدين ابن الخطيب في كتاب إعلام الأعلام فيمن بويع قبل الخلافة قبل الاحتلام، ومن الجدير الرجوع إلى: الأمين، دائرة المعارف الإسلاميّة ٤: ٢٤ ـ ٢٥.

8 ــ اسمها اليوم فالينسيا، وتقع شرق إسبانيا على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسّط.

9 ــ انظر: حسين المونّس، الحلة السيراء لابن الأبار: ١٦، القاهرة، ١٩٦٣م.

10 ــ ابن خلدون، العبر ٦: ٦٠١ـ ٦٠٥؛ ومحسن الأمين، أعيان الشيعة ٩: ٣٨٨.

11 ــ تقع أعلى ساحل المتوسّط لدولة الجزائر الحالية.

12 ــ ابن خلدون، العبر ٦: ٦٥٤ ـ ٦٥٥.

13 ــ الذهبي، العبر ٣: ٢٩٢.

14 ــ للتعرّف على حياته وآثاره أكثر، عليك بمراجعة: مجلة دراسات أندلسيّة العدد: ٢، ١٤٠٩هـ؛ وقد طُرحت في هذا العدد الخاصّ من المجلة المذكورة دراسات كانت قد كتبت في المؤتمر المنعقد حول ابن الأبّار في تونس، وقد طُبعت في مدينة (انده) في أسبانيا؛ انظر: عبد العزيز عبد المجيد، ابن الأبّار حياته وكتبه، الرباط، ١٩٥١م؛ ودائرة المعارف الإسلاميّة الكبرى، ذيل ابن الأبّار، وكذلك انظر المقدّمات التي كتبها المحققون على آثار ابن الأبّار.

15 ــ أحمد المقري، نفح الطيب: ٣٩٧، بيروت، ١٩٨٦م.

16 ــ ابن الأبّار، التكملة لكتاب الصلة ٢: ٦٣٥، إشراف: عزت العطّار الحسيني، القاهرة، ١٩٥٥م.

17 ــ الغبريني، عنوان الدراية: ٣١٢، إشراف: عادل نويهض، بيروت، ١٩٦٩م.

18 ــ الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٣: ٣٣٨.

19 ــ المقري، نفح الطيب ٤: ٥٠٠ ـ ٥٠٦.

20 ــ محسن الأمين، أعيان الشيعة ٩: ٣٨٥؛ والمقري، نفح الطيب ٤: ٤٩٦ ـ ٤٩٩.

21 ــ آغا بزرك الطهراني، الذريعة ٨: ١٢٤ ـ ١٢٥؛ و٢١: ٢١٧.

22 ــ الهراس والعراب، مقدّمة درر السمط: م، ن، ص.

23 ــ المصدر نفسه: ن.

24 ــ بل دانت الأندلس للسنّة، وكانت من البدع في أحصن جُنّة.. راجع: المقرّي، نفح الطيب ٤: ٤٩٨.

25 ــ درر السمط: ٦.

26 ــ المصدر نفسه: ٦٣ ـ ٦٥.

27 ــ الذهبي، ميزان الاعتدال ٣: ٤٩٨ ـ ٤٩٩، ٦٠٨.

28 ــ المصدر نفسه ٢: ٢٧، و٣: ٥٢٣، و٤: ٣٠.

29 ــ قام بتحقيق الكتاب وترجمته لأوّل مرّة عامر الغديرة للحصول على الديبلوم العالي في المطالعات من باريس، لكنّه لم يظهر للعيان بسبب عدم طبعه، وقام الكاتب بكتابة مقالة تحليلية حول كتاب دُرر السمط نشرها في مجلة الأندلس، العدد: ٢٢، ١٩٥٧م: ٣١ ـ ٥٤؛ وكذلك طُبع الكتاب طبعةً مُحقّقة لأول مرّة بجهود عبد السلام الهراس وسعيد أحمد العراب في تطوان المغرب، وعُرض عام ١٩٧٢م، وهذه النسخة تحتوي على ٨٨ صفحة ومقدّمة، وقد صحّحت وقوبلت مع ثلاث نسخ خطيّة، على طريقة التصحيح التلفيقيّة، وكُتب عليها حواشي قيّمة، كما أنّ كتاب دُرر السمط حُقّق مرةً ثانية مِن قبل عزالدين عمر موسى، وفق نسخة خطيّة موجودة في مكتبة الشعب العامة في المغرب، وطبع في بيروت عام ١٤٠٧هـ.

30 ــ ابن الأبّار، درر السمط: ٥.

31 ــ المصدر نفسه: ٧.

32 ــ المصدر نفسه: ٨.

33 ــ المصدر نفسه: ١٩ ـ ٢٠.

34 ــ المصدر نفسه:٢٢، «فلولا أن «لا نبي بعدي» نصّ في الامتناع، لكانت «أنت منّي بمترلة هارون من موسى» حجّةً في الاتّباع».

35 ــ المصدر نفسه: ٢٣ «وارحْمَتا لأبي طالب! كفل ثم كفر، ونصر وما أبصر!».

36 ــ المصدر نفسه: ٤٢ ـ ٤٥.

37 ــ المصدر نفسه: ٥٠.

38 ــ المصدر نفسه: ٥٢.

39 ــ أترجو أمّة قتلت حسيناً شفاعة جدّه يوم الحساب؛ انظر: المصدر نفسه: ٥٥ ـ ٥٦.

40 ــ المصدر نفسه: ٦٣ ـ ٦٥.

41 ــ المصدر نفسه: ٦٨ ـ ٧٠.

42 ــ المصدر نفسه: ٧٤ ـ ٧٦.

43 ــ المصدر نفسه: ٧٩.